بسم الله الرحمن الرحيم

obeikandl.com

obeikandl.com

إهـــداء

إلى روح الأستاذ الدكتور/ على عبدالفتاح المغربى

أهدى هذا العمل

أمل مبروك

obeikandl.com

obeikandl.com

المقدمة

عرَّف الفلاسفة الإنسان بأنه "حيوان ناطق" أى عاقل قادر على إدراك العالم من حوله، فلا شك ـ كذلك ـ أنه "حيوان أسطورى" بمعنى أنه الحيوان الوحيد الذى ينسج الخرافات والأساطير ويحولها إلى "ميثولوجيات" معقدة يؤمن بها إيماناً جازماً كما لو كانت حقائق واقعة لا ريب فيها .

ومنذ فجر التاريخ، سعى الإنسان إلى فهم الطبيعة والكون، ومعرفة القوى المهيمنة على الحياة والوجود؛ وكان الخيال رائده الأول فى كشف غموض تلك الأسرار (قبل أن يهتدى إلى مناهج الفلسفة والعلوم). واعتمد فى أسلوبه هذا على لغة خاصة، هى لغة "الأسطورة"، لكى يُفسر كل ما يحيط به؛ مثل بدء الخليقة، النظام الكونى، الصراع الأزلى بين الخير والشر .... إلخ، ويطرح ـ من خلالها ـ تساؤلات عما يراه من تناقضات تشوب النظام الرائع الذى أبدعه الإله الأعلى وسنَّه للحياة .

لذلك كانت "الأسطورة" ـ وما تزال ـ الوسط الذى واجه الإنسان فيه مشكلاته الكبرى والدائمة (كالموت والمصير والشر وأصل الأشياء، غايتها ومعناها) كانت بالنسبة له كل شىء. كانت تأملاته وحكمته، منطقه وأسلوبه فى المعرفة، أداته الأسبق فى التفسير والتعليل؛ أدبه وشعره وفنه، وعرفه وقانونه ... كانت انعكاساً خارجياً لحقائقه النفسية الداخلية. الأسطورة ـ إذن ـ نظام فكرى متكامل، استوعب قلق الإنسان الوجودى، وتوقه الأبدى لكشف كل ما هو غامض فى إطار محيطه الخاص. إنها إيجاد النظام حيث لا نظام، وطرح الجواب على أسئلة عديدة؛ ورسم لوحة متكاملة للوجود يجد فيها مكانه ودوره، إنها الأداة التى تزوده بمرشد ودليل فى الحياة، ومعيار أخلاقى فى السلوك. إنها مجمع الحياة الفكرية والروحية للإنسان .

obeikandi.com

وبينما يلجأ الإنسان فى الأزمان الغابرة إلى "الأسطورة" وما تتضمنه من قصص خيالية حتى يفسر- من خلالها - ظواهر الكون الطبيعية وغيرها من الظواهر، التى لم يكن بمقدوره أن يستنبط قوانينها العلمية ويسخرها لصالحه؛ فمازال الإنسان المعاصر يحرص على استهلاك وإنتاج "الأسطورة" التى تسهم فى تحقيق قدر من الاتزان فى علاقته بذاته وفى علاقته بأفراد المجتمع .

ومن هنا، رأى البعض ضرورة تفسير "الأسطورة" ضمن إطار البناء الاجتماعى والثقافى السائد فى المجتمع، فإذا كانت "الأسطورة" تطرح مشكلتها طرحاً مباشراً - أى باستخدام الألفاظ التى يستخدمها المجتمع الذى نشأت فيه - فإن مضمونها يظهر من خلال المجتمع ذاته. وهى أحياناً تطرح المشكلة طرحاً مقلوباً، وتسعى إلى حلها بالخلف، وفى هذه الحالة يقدم مضمون "الأسطورة" صورة عكسية للواقع الاجتماعى بصبغته الواقعية المعطاة، وعلى نحو ما هو ماثل فى الوعى. وعلى هذا الأساس، تظهر "الأسطورة" بوصفها "أيديولوجيا" وتطرح تساؤلات معرفية حول كثير من القضايا الاجتماعية والفكرية .

و"الأيديولوجيا" عادةً تتخذ شكل "الأسطورة" أو شكل العقيدة، بل نجد البعض يُوَحّد بينها وبين الدين، كما فعل "ماركس" وعدد كبير من المفكرين منهم: "فويرباخ" و "فرويد"؛ كما نجد البعض الآخر يتناول المسيحية ذاتها بوصفها "أيديولوجيا". لكن متى اتفقنا على أهمية البعد الأسطورى فى "الأيديولوجيا"، بل متى نظرنا إليها كعقيدة أو أسطورة يظل التساؤل قائماً حول علاقتها بالواقع الاجتماعى. وهنا قد تبدو عند البعض أشبه بالقناع الزائف الذى يُستَخدم - عادةً - لتبرير وتسويغ سلوك الأفراد والجماعات وحماية مصالحهم وحجب وإعاقة كل تقدم .

ومن هذا المنظور، بدت "الأيديولوجيا" بعيدة كل البعد عن الحقيقة الموضوعية، ووجدنا "ماركس" يصفها بأنها تشويه الحقائق وتزييفها بقصد تبرير موقف الطبقة الحاكمة (أى الطبقة البورجوازية) لأنها تستخدم أيديولوجيتها فى الحفاظ على سيطرتها وفى محاربة الطبقات المقهورة. ورآها "مانهايم" المعادل الوظيفى للأسطورة حيث تهدف إلى الدفاع عن الوضع الراهن، وإيجاد التبريرات

اللازمة لحماية مصالح الفئات الحاكمة، بينما رأى "سوريل" أن "الأيديولوجيا" (أو "الأسطورة") أداة تعبيرية عن مطامح الجناح الثورى، فهى لا تكتفى بمناقشة وتحليل النظم الاجتماعية دون أن تعمل على تغيير الواقع فعلياً؛ لذلك عدها هى و"الأسطورة" حقيقة واحدة.

وهكذا، يمكن القول أنه من العسير – إن لم يكن من المستحيل – أن يتحرر الفكر الإنسانى من طابعه العقائدى الأيديولوجى، أى من طابعه الأسطورى؛ كما أنه من المستحيل أن يحيا الإنسان والمجتمع دون "أيديولوجيا" أو – بمعنى أدق – دون عقيدة أو أسطورة .

من هذا المنطلق، جاء اختيارنا لموضوع هذا البحث "الأسطورة والأيديولوجيا" وقمنا بتقسيمه إلى مقدمة وخمسة موضوعات وخاتمة على النحو الآتى :

الموضوع الأول وعنوانه : "الأسطورة والوعى الإنسانى"، ويتضمن الموضوع الثانى "الأسطورة والخبرة الدينية"، بينما يدور الموضوع الثالث حول : "الأسطورة والتحليل النفسى"، ثم يتناول الموضوع الرابع : "الأسطورة والوعى الزائف"، وأخيراً جاء الموضوع الخامس بعنوان : "الأسطورة واليوتوبيا". أما الخاتمة فقد رصدنا فيها أهم النقاط التى يمكن أن ننتهى إليها من تحليل مضمون "الأسطورة والأيديولوجيا". ولقد أثرنا الاستعانة بالمنهج التحليلى المقارن كأداة نستطيع من خلالها بيان الدور الرئيسى الذى لعبته "الأسطورة" أو "الأيديولوجيا" فى المجتمعات القديمة والحديثة على السواء .

وبعد، أتمنى من المولى عز وجل أن يجد القارئ فى هذا البحث ما يستأهل الجهد الذى بذله فى قراءته. والله المستعان ...

دكتورة

أمل مبروك